﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [الرّعد: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا طَلَب المشركون في الآيات السّابقة من الرَّسول ﷺ بعض الآيات على سبيل الاستهزاء والسُّخرية وكان ذلك شاقًّا على الرَّسول ﷺ، جاءت هذه الآية تَسليَة له ﷺ وتصبيرًا له على سفاهة قومه[1].

ومنها ما ذُكر في الآية السّابقة على هذه الآية مِن طلَب الكفّار سُخريةً واستهزاء أن تُسيَّر الجبال وتُقطَّع الأرض وتُكلَّم الموتى، وهم يَعلمون أنَّ القرآن ليس لهذا، فلا يكون إلّا سَببًا لنَيْلهم الجزاء الأوْفى من العِقاب والدَّمار، فتأتي هذه الآية تأكيدًا وتَسليَة للرَّسول ﷺ بأنَّه مَسبوق في مسألة الاستهزاء، فهو ليس بأوَّل الرُّسل وإنَّما يَسيرُ عليه ما سارَ على الرُّسُل من قَبْله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: الهُزْءُ: السُّخرية، يُقال: هَزِئَ بِهِ، يهزَأ بِهِ، واستهزَأ بِهِ؛ أيْ: عامَلَهُ فِعلًا أو قَولًا يحصُل به احتقارُه ... سواء أشْعَره بذلك أم أخفاه عنه، وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ أيْ: فقد سَخرَ الكُفّارُ برُسُلي الَّذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك[2]، والمعنى المحوريُّ: تحرُّكٌ وتحريكٌ قويٌّ بسبَبِ الخِفَّة؛ كما في تحريك الرّاحلة والإسراع، ومن ذلك: هَزِئَ به (كمنع وسمع): سَخِر، كتهزّأ واستهزأ. (وأصل هذا من استخفاف المُستهزِئ بالمستهزَأ به وذهاب قيمته عنده)[3].

2) ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾: الإملاءُ: الإمهالُ على جِهةِ الاستدراج، وهو مِن الملاوَةِ مِن الزَّمَن، وأصلُ (ملو): يدلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه؛ أيْ: أمهلْتُ وأطلْتُ المُدَّةَ[4]، والمعنى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/53.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هزأ، هزؤ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 228، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 472، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملا)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/314.

المحوريُّ: اتِّساع ما يجوز شيئًا أو امتداده، كالمُتَّسعِ من الأرض لِما فيه، وكذلك الفلاة، والرَّماد مُمتدٌّ من غيره ويُخْبَز فيه، والفترة المُمتدَّةُ من الزَّمان لمَن يعيش فيها[1].

3) ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾: الأَخْذُ: حَوْزُ الشَّيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول نحْو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، وهو خِلاف العطاء، ومعناه "تحصيل الشَّيء في الحوزة بسرعة"[2]، ويُقال: أخذَتْه الحُمَّى، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النّازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 102].

4) ﴿عِقَابِ﴾: العِقابُ والمُعاقَبَةُ: مُجازاةُ الرَّجُلِ بالإيلام بِما فَعَل من السّوءِ، وهي تختَصُّ بالعذاب، يُقال: عاقَبَهُ بذَنْبِه، مُعاقَبَةً، وعِقابًا: إذا أخَذَهُ بِه، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، من تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجُلَ؛ أيْ: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقوبات[3]، والمعنى المحوريُّ: لحاقُ غليظٍ بآخِر الشَّيء أو خَلْفه يَنْغَمِس فيه فيمتدُّ معه، كعَقِب القَدَم، وعَقَبُ المَتْنَيْن وما ذُكر معهما[4].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تسليَة رسول الله ﷺ ببَيان سُـنَّـةِ الـلـه في المُستهزئين

تُخبِر الآية الكريمة أنَّ الله تعالى قال لرسوله ﷺ: لا يَحزنك أمرُهم ولا يؤلمك استهزاؤهم فقد استهزأ الكُفّارُ برُسُلي الَّذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك؛ فأمهلْتُ الَّذين كَفَروا، مُدَّةً، ثمَّ أحلَلْتُ عليهم عذابي، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعوديَ، فاصبِرْ على أذاهم. وفي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملو).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

هذا إرشاد للنَّبيِّ ﷺ ببيان سُنَّة الله في المكذِّبين، وتسليةٌ له حتّى لا يَضيقَ قلبُه ذرْعًا، وتبشيرٌ له بالنَّصر وحُسن العاقبة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾:

جاءت الواو لتُعطف جملة ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لِما بينهما من تلازُم، لأنَّ المُثُلَ الثَّلاثة (تَسيير الجبال، تكليم الموتي، تشقيق الأرض) الّتي فُرِضت؛ أُريد بها أمورٌ سألها المشركون النَّبيَّ ﷺ؛ استهزاءً وتعجيزًا لا لتَرَقّبِ حُصولها.

بيان سخريّة الكفّار من صاحب الدَّعوة ﷺ

دلالة تعقيب الآية السّابقة بهذه الآية:

عُقِّبت الآية السّابقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بهذه الآية ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ تسليّة لرسول الله ﷺ وأنَّه ليس بِدْعًا من الرُّسل في استهزاء قومه منه؛ فقد استهزأ قومُ نوح به عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: 38]، واستهزأت عادٌ بهود عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشُّعراء: 187]، واستهزأت ثمودُ بصالح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]، واستهزأوا بشُعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: 87]، واستهزأ فرعونُ بموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّخرف: 52][2].

طبائع الأقوام الكافرة واحدة في الاستهزاء بالرُّسل

دلالة اللّام في قوله: ﴿وَلَقَدِ﴾:

اللّام موطِّئة للقَسَم[3]، فهي تمكين للشَّيء في النَّفْس، وتقوية أمره، فكان ذلك تأكيدًا لما أُريد تأكيده وهو السُّخرية من الرُّسل

تأكيد سُخرية الكفّار من المُرسَلين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/544، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/322.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/148.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/121.

صلوات الله عليهم، وتأنيسًا لرسول الله ﷺ وتعزية، وفي تصدير الجُملة بلام القَسَم وحرْفِ التَّحقيق من الاعتناء بها ما لا يَخفى[1] لزيادة تحقيقِ مضمونها[2].

سِرُّ التَّعبير بـ (قد) مع الفعل ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾:

التَّأكيد على وقوع الاستهزاء من الأقوام الكافرة لرُسُلهم

دلَّ التَّعبير بـ (قد) مع الفعل ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾ على وقوع الاستهزاء من الأقوام السّابقة، وأكّدَ ذلك بأكثر من مُؤَكِّد لمُجابَهة المُنكِر لِما حدث للرُّسُل الكرام من استهزاء وسُخرية؛ لأنَّ حال مُشركي مكَّة حال مَن يتردَّد في أنَّ سبب هلاك الأُمَم السّابقة هو الاستهزاء بالرُّسل؛ لأنَّهم لو لَم يَتردَّدوا لَأخذوا الحيطة لأنفُسهم ونَظروا في دلائل صِدْق نبوَّته[3].

وفيه زيادة تسليَة للرَّسول ﷺ، فكأنّ (قد) جاءت "لإزالة الشُّكوك وإماطة اللِّثام عمّا أنت بصَدَدِه"[4]، مع مُلاحظة أنَّ (قد) تدلُّ على زمن الحال، مع أنَّ الماضي بعيد عن زمن الحال، لكن الجملة جاءت تنزيلًا له منزلةَ القريب، ليَحصل كمال التَّخويف[5].

سِرُّ التَّعبير بالاستهزاء: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾:

قضيَّة الاستهزاء والمُبالَغة فيه

الفعل (استهزأ) فيه الألف والسّين والتّاء، و(استفعل) فيها الطَّلَب، وكأنَّهم يَطلبون الهُزْءَ بالرُّسل، فهُم مَن يتعمَّدون ذلك، قال الرّاغب: "الاستهزاء ارتياد الهُزء، وإن كان قد يُعَبَّر به عن تعاطي الهُزء، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، إضافة إلى معنى المُبالَغة"[6] في الفعل فكأنَّ هؤلاء يبالغون مُبالغة لا يَتزحزحون عنها،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/68.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.
(4) العلويّ، الطّراز: 2/176.
(5) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.

ثُمَّ إنَّ الفعل (استهزئ) أخَفُّ من (يسخر) كما قال ابن عاشور[1]، فصار الاستهزاء أمرًا يَسيرًا لا صعوبة فيه، وقد أشار الزَّركشيُّ إلى الفرْق بين السُّخرية والاستهزاء، فقال: "الاستهزاء هو إسماع الإساءة، والسُّخرية قد تكون في النَّفس ولهذا يقولون: سَخِرْتُ منه، كما يقولون: عجِبتُ منه"[2].

ولذلك فالتَّعبير بالاستهزاء هو المُناسِب هُنا دون السُّخرية؛ لأنَّ كُفّار مكَّة يُريدون إلصاق التُّهَم برسول الله ﷺ من غير وجود لها، وكانوا يُعلنون ذلك في أنْديَتهم ومجالسهم.

دلالة بناء الفعل للمفعول ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾:

التَّركيز على عمليَّة الاستهزاء، وتحقير المُستهزئ

ذلك البناء للتَّحقير، فهُم ليسوا أهلًا للذِّكر، فهو تعريضٌ على نحْو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[3] [التَّكوير: 8-9] مع أنَّ الفاعل للاستهزاء معروف، وهم كُلُّ الأقوام الَّذين أرسلَ إليهم الرُّسل، مع التَّركيز على عمليَّة الاستهزاء دون المُستهزِئ، وبناء الفعل هنا واشٍ بأنَّ ذلك الاستهزاء صار طبيعة مُتمكِّنةً في الأقوام الَّذين يُرسل لهم الرُّسلُ المُصلحون؛ فلَم يَسلم رسولٌ من ذلك الاستهزاء، فلستَ ببِدْعٍ في ذلك، "والمقصود ممّا سبَق هو ترتّب أثَرِ الاستهزاء لا تعيين المُستهزئين"[4]، إضافة لذلك فالبناء للمفعول دالٌّ على أنَّهم يَطلبون من الآخرين أنْ يهزأ بشخص مُعَيَّن، وهذا عليه إثْمُه وإثم مَنْ أوعز له بالسُّخرية من هذا الشَّخص[5].

دلالة إيثار ﴿بِرُسُلٍ﴾ على (بأنبياء):

الرُّسل أخَصُّ من الأنبياء

التَّعبير بالرُّسل في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ فيه فائدتان،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/381.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/523.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7350.

الأولى: المُناسَبة اللَّفظيَّة بين اللَّفظة والفعل ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ في الآية قبل السّابقة عليها، الثّانية: ثَمَّ فرْقٌ بين النَّبيِّ والرَّسول وهو أنَّ الرَّسول أخَصُّ، فكلُّ رسول نبيٌّ؛ وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، فإنَّ الرَّسول يختصُّ بمَن جعله واسطة بينه وبين عباده لتَبْيين أحكامٍ بوحْيٍ مسموع عن مَلَكٍ، والنَّبيُّ قد يُقال لمَن يُجدِّد على النّاس شريعة مَن تقدَّمه وإن كان يوحَى إليه بإلهام أو مَنام[1].

وفيه إشارة إلى أنَّهم إذا كانوا يَستهزئون بالرُّسل، فمن باب أوْلى يَستهزئون بالأنبياء.

دلالة التَّنكير في ﴿بِرُسُلٍ﴾ دون التَّعريف:

بيان عظمة الرُّسُل وكثرتهم

للتَّنكير دلالة التَّعظيم والتَّكثير[2]؛ أيْ: برُسل كثيرة؛ فهؤلاء المُرسَلون هُم قوم مُصطفَوْن من خيار النّاس وأفاضلِهم وأنفَسهم، ومَنبع التَّعظيم أنَّهم الصَّفوة، ومنبعُ الكثرة جمْع الكلمة، والجمع مُفيدٌ للتَّعدُّد، وفيه إشارة إلى أنَّه لَم يَسلم من استهزائهم رسول من الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

تعرُّض الرُّسُل للاستهزاء، وتعرُّضه ﷺ لِما تعرَّضوا له

في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: (مِن) ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بمَحذوف وقَعَ صِفة لِـ(رُسُل)؛ أيْ: وباللّه لقد استُهزئ برُسل أولي شأنٍ خطيرٍ وذَوي عدد كبير كائنينَ من زمانٍ قبلَ زمانك، على حذْف المضاف وإقامة المُضاف إليه مقامَه[3]، ودلَّت (من) الابتدائيَّة أيضًا على أنَّ كُلَّ رسول تعرَّض لِما تعرَّضتَ له من بَدء الإرسال، وكأنَّ هؤلاء الأقوام صاروا أهل عَراقة في الاستهزاء والسُّخرية، إضافة إلى أن ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يَدُلُّ على جُمْلَةٍ مَطْويةٍ إيجازًا، تقديرها:

(1) الرّاغب، المُفردات: 3/1310.
(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/505، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.

واستهزأوا بِكَ، ولقد استهزأت أُمَم برُسل من قبلك؛ لأنَّ قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يؤذِن بأنَّه قد استُهزئ به هو أيضًا، وإلّا لَم تكُن فائدة في وصْف الرُّسُل بأنَّهم من قبْله؛ فإنَّ ذلك معلوم[1].

دلالة كافِ الخِطاب في: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

تكريم الرَّسول ﷺ وتسليَته

الكاف هُنا صورة من صوَر التَّكريم لرسول الله ﷺ، وتسلية وتعزية، ومعهما النُّصرة والظَّفَرُ على هؤلاء الكافرين المُعانِدين.

نكتة إيثار الفاء في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

وصْل زمن الاستهزاء بزمن الإملاء

الفاء هُنا دالَّة على مَطْلِ الزَّمن[2] ووَصْل زمن الاستهزاء بزمن الإملاء، فكأنَّها هُنا بمعنى (إلى)[3]؛ أي: استُهزئ بالرُّسل قبْلك من بداية الإرسال إلى الإملاء، وفي هذا التَّأكيد على استمرار الإملاء على الرَّغم من التَّمادي في الكُفر عسى أن يكون منهم المُؤمنون بعدُ، وتكون الفاء هُنا للسَّببيَّة أيضًا؛ فيكون الاستهزاء سببًا في الإملاء؛ والمعنى: "فتَسببَ عن استهزائهم ذلك أنّي أملَيْت"[4] رحمةً أو استدراجًا؛ كما قال ربُّنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]، وقد تكون "للتَّعْقيب دَلالَةً عَلى أنَّ تَقْديرَ هَلاكِهم حاصِل من وقْتِ تَكْذيبِهم وإنَّما أُخِّرَ لَهُمْ"[5].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ لا (فأمهلتُ):

تَضاعُف العذاب في الإملاء عن الإمهال مع مُصاحَبة الاستدراج

الإملاء أشدُّ من الإمهال كثيرًا، لأنَّه يَتَضاعف به العذاب[6]، ويُصاحِبه استدراجٌ لزيادَة الإثم والخطأ؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنَّه قد نجا؛ فيؤخَذ بالعقوبة[7]؛ لذا أوثِرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) الخضريّ، من أسرار حروف العطف في الذّكر الحكيم، ص: 70.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/364.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(6) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.

دلالة الإسناد في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

حـضـور صِـفـة القُدرة والهيمنة مــع طـمـأنـة الرَّسول ﷺ

التَّعبير بتاء الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ لمُناسَبة ما بعدَها، الفعل ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ بتاء الفاعل أيضًا، وفيه مُخاطَبة للرَّسول ﷺ: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾، فاستمرَّ الحوار بتاء الفاعل أيضًا، ويُصَوِّر الفعل بتاء الفاعل الحضورَ الفاعل لصِفَة القويّ المُقتَدِر، وفيه أيضًا طمأنةٌ للرَّسول ﷺ بأنَّه مَعهُ وناصِره في كُلِّ مراحِل دعْوَته.

دلالة التَّعبير بـ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (لهُم):

سبب هلاكهم الــجــمْــعُ بــين وصْــفَــي الاســتــهــزاء والكُفر

العدولُ في الصِّلة إلى وصْف الكُفر ليس لأنَّ المُملَى لهم غيرُ المُستهزئين، بل لإرادة الجمعِ بين الوَصْفيْن؛ أيْ: فأملَيْت للّذين كفروا مع استهزائهم[1]، والتَّعبير بـ (لهُم) يُفوِّت هذي النُّكتة، ثُمَّ إنَّ التَّعبير بالاسم الموصول مع الصِّلة دالٌّ على أنَّ ذلك لِكُلِّ كافر لا لهُم وحدَهم، إضافة إلى أنَّ "وضْع الظّاهر موضع الضَّمير؛ للإيماء إلى أنَّ عِلَّة الإملاء لهم ثُمَّ أخْذهم هو الكُفر بالرُّسل، تعريضًا بالنِّذارة لمُشركي قريش"[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين):

ثـبـات الـكُـفـر في نـفـوسـهـم، واستمساكُهم به

إيثار القرآن للاسم الموصول (الّذين) مع صِلته فيه إيماءة إلى ثبات الكُفْر في نفوسهم، واستمساكهم به؛ فلا مجال لتغيير عقيدتهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادت الذَّمَّ، فإتْيان الموصول الماضي قُصِدَ به الالتباسُ والاسْتصحاب[3]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلَته يَدُلُّ على اختيارهم الكُفْرَ بإرادتهم من دون تَدَخُّلٍ في اختيارهم، وثَمَّ مَلحظٌ آخَر، وهو مُراعاة التَّناسُب، ذلك أنّ هذا السّياق بكامله وظَّف الاسم الموصول مع صِلته دون اسم الفاعل،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/283.
(3) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 187/1.

وهذا ظاهرٌ من الآية التّاسعة والعشرين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والحادية والثّلاثين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكذا الثّانية والثّلاثون.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾:

طـول الإمـهـال رجاء إيمانهم

جاءت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ للدّلالة على التّراخي وإطالة الأمَد؛ وجاء التّعبير بها في قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ دون غيرها من حروف العطْف لبيانِ أنَّه أمدَّ لهم أمَدًا غيرَ قصير، حتّى ظَنّوا أنَّه لا مُؤاخَذة على ما يفعلون، وغرَّهم الغَرور، وحسبوا أنَّ الدُّنيا قد طابَتْ لهم بحذافيرها[1]، والتّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ فيه فرصة لِمَن راجَعَ نفْسَه وعقله ليُدرِك أنَّ ما جاء به الأنبياء حَقٌّ فيؤمِن ويَترُك الكُفر والصُّدود.

دلالة التّعبير بالأخْذ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾:

قـــوَّة الأخْـــذ والإشـــعـــار بـالـسُّـلـطـان وشِدَّة الهيمنة

توظيف الأخْذ، فيه فائدتان: الأولى: فيه من الدّلالة على تَناهي كيفيَّته في الشِّدَّة والفظاعة ما لا يخفى[2]، الثّانية: إشعارهم بالسُّلطان؛ لأنَّ الأخْذ يتضمَّن أنَّهم صاروا غير خارجينَ عن سُلطانه؛ فالأخْذ أقصى ما يَدُلُّ على التَّمكُّن، وأن يكونوا في قبضته يُصرِّفهم كيف يشاء[3].

سِرُّ التّعبير بتاء المُتكلِّم ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾:

شِـدَّة الغضب وتحقير الكُفّار مـع المُشاكَـلة اللّفظيّة

فائدة صرْف القول لتاء الفاعل، كما يقول البقاعيّ[4]، دفْعُ الإلباس، وإشارة إلى شِدَّة الغضب، وتوظيفُ تاء الفاعل بدلًا من (نون العظَمة) جاء استصغارًا لهم: ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾؛ أيْ: أهلكْتُهم وهم صاغِرون؛ غضَبًا عليهم وإهانة لهم، إضافة إلى المُشاكَلة اللّفظيَّة بتاء الفاعل بيْن الفِعلَيْن ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ و﴿فَأَمْلَيْتُ﴾، ثُمَّ ياء المُتكلِّم في ﴿عِقَابِ﴾؛ أيْ: عِقابي.

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3955.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3955.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/10.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾:

اتّحاد وقت العِقاب مع الاستفهام

دلَّت الفاء العاطفة في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ على مَدى مُطابَقة الاستفهام لكيفيَّة الأخْذ؛ فكأنَّ حَقَّ ذلك الاستفهام أن يَحصل عند ذِكر الأخْذ[1]، كما دلَّت الفاءُ على السَّببيَّة؛ لبيان أنَّ الكُفْرَ سبب العِقاب بعد الإمهال الطَّويل لهؤلاء الكفّار الصّادّينَ عن دعوة الأنبياء.

سِرُّ الاستفهام بـ ﴿فَكَيْفَ﴾ دون غيرها:

تشابُه الأحوال والأطْوار مع دلالات التَّعجُّب والوَعيد

في التَّعبير بـ ﴿فَكَيْفَ﴾ تنبيه على أنَّ حال مَن استهزأ بك - وإن أُمهلَ - حال أولئك الأقوام الغابرين في أخْذِهم، وهذا وَعيد لهم، وأنَّ حالَكَ حال مَن تَقدَّمك من الرُّسل[2]، استهزاءً وسخريةً، والاستفهام معناه التَّعجُّب بما حَلَّ، وفي ضِمنه وعيدُ مُعاصِري الرَّسول ﷺ من الكفّار[3]، فهو سؤال لا يحتاج إلى جواب، فلقد كان عِقابًا تتحدَّث به الأجيال.

دلالة ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾:

الدَّلالة على الاستمرار المُنذر بالتَّهديد والوعيد

في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ آثر النّظم القرآنيُّ الإتيانَ بـ ﴿كَانَ﴾ للدَّلالة على الاستمرار[4]، فهي ماضٍ مع دلالته على الدَّوام، فضمَّت زمَنَيْن: الماضي والحاضر، فهي تُشير إلى اقتران مضمون الجملة بالزَّمان الماضي من غير تَعرُّض للانقطاع، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النّساء: 96]، ولذلك يُعبَّر عنها بأنَّها تُرادِف (لَم يَزَل)[5]؛ لمُحاوَلة التَّخويف والإيعاد بطول العِقاب وشِدَّته فحدوثه ماضيًا لا يعني انقطاعَه وتوقُّفَه في الحاضر.

دلالة التَّعبير بـ ﴿عِقَابِ﴾ دون غيره:

دخول العذاب في معنى العِقاب مع دلالة التَّهديد

في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ إشارة إلى أنَّ الجزاء من جنس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/393.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/239.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/100.

العمل، لأنَّ مُسمَّى العِقاب إنَّما يُراد به في الغالب أخْذٌ بعذاب مُناسب لحال المُجرِم إثْرَ مَعصيته وعَقيبَ جريمته[1] مع اختصاص لفظة ﴿عِقَابِ﴾ بالعذاب في القرآن كما أشار الرّاغب[2]، فالعذاب داخل في مفهوم العقاب، مع دلالة العقاب على التَّهديد والوعيد لِكُلِّ مَن يَفعل ذلك؛ لأنَّ الاعْتِقاب معناه أن يَتَعاقب شيءٌ بعدَ آخَر كاعْتِقاب اللَّيل والنَّهار[3]، فدلَّ اللَّفظ على أنَّ مَن استهزأ بالرُّسل عوقِب، فكأنَّه ﷻ وعَده ﷻ بعقوبة مَن استهزأ به ﷺ إن أصَرَّ على ذلك[4].

دلالة حذْف الياء في قوله: ﴿عِقَابِ﴾:

الهيمنة والقُدْرة المُطلَقة، مع مُراعاة رؤوس الآي

حُذفت الياء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لوجود ما يَدُلُّ عليها، والمحذوف مع وجود ما يدلُّ عليه يكون كالمذكور في دلالة المعنى، ولموافقة رؤوس الآي فكلُّها يَنتهي بالياء المكسورة، وكسر الباء دالٌّ عليها، وثَمَّ مَلْحظ ذكَرَه البقاعيُّ[5]، وهو أنَّ حذْف ياء المُتَكلِّم إشارة إلى أنَّ أدْنى شيء من عِقابه وبأدنى نِسْبَة كافٍ في المُراد، وإنْ كان المُعاقَبَ جميعُ العِباد، بدليل ما أصاب الأُمَم السّابقة من غرق وخسْف وصاعقة ونحْو ذلك.

توجيه المُتشابِه اللَّفظيّ في الآيات:

المَوضِع الأوَّل: بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ [الأنعام: 10].

إنَّ النّاظر في الآيتَيْن يجِدُ اتِّفاقًا في صدْر كُلٍّ منهما مع اختلاف العَجُز؛ ففي سورة الأنعام جاء التَّعبير بقوله: ﴿فَحَاقَ﴾ [الأنعام: 10]،

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/96.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/10.

لأنَّه سَبَقَهُ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام: 5]؛ فالمُلاحظ أنَّه ﷺ أمهلَهم وأنذرهم بعاقبة أمرِهم؛ لذلك كان التَّعبير بالفعل ﴿فَحَاقَ﴾ [الأنعام: 10] هو المُناسب؛ لأنَّ الحَوْق إزالة؛ فكان العِقاب في الأنعام أشَدَّ؛ لأنَّ السُّخرية كُفر وزيادة، إضافة إلى أنَّ السّياق في سورة الأنعام سياق طويل استغرَقَ نحو السَّبعين آية حول الكُفّار وعِنادهم؛ لذا كان العذاب أشدَّ، أمّا سورة الرَّعد فالإمهال موجود؛ طَمَعًا من المسلمين في إيمانهم وتَكْثيرهم سوادَ المُسلمينَ؛ لذا عبَّر بـ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وفيها إنظار، والسّياق في سورة الرَّعد لَم يتطاول تطاولَ السّياق في الأنعام فاختلف الجزاءُ، وقد يكون التَّغاير من باب تعدُّد أنواع العذاب، وتعدُّد المواقف، فقوم يُعذبون ويُهلكون، وقوم يُمهَلون لمشيئةٍ ما، فتغايَر النَّظمُ.

الموضع الثّاني: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤﴾ [الحجّ: 44]:

العِقاب أشَدُّ مَوقعًا من النَّكير؛ لأنَّ الإنكار يَقَع على ما لا عِقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل، وأمّا مُسَمَّى العقاب، فإنَّما يُراد به في الغالب أخْذٌ بعذاب مُناسِب لحال المُجرم إثْر معصيته وعَقيب جريمتِه، وقد تقدَّم في آية الرَّعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، والاستهزاء أمر مرتَكَب زائدٌ على التَّكذيب من التَّهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكَبة أشنَعُ جريمة، فناسَبها الإفصاحُ بالعقاب. أمّا آية الحَجِّ فإنَّ الوعيد (بها) للمَذكورين بالتَّكذيب ولَم يُذْكر منهم استهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾ [الحجّ: 42 - 44]، فلَم يخبر عن هؤلاء بغير التَّكذيب ليس كالاستهزاء، فقد يُؤمن المُكذِّب ويَصلح حالُه، أمّا المُستهزئ فلا يصلح، وقد كفى اللّه نبيَّه إيّاهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحِجر: 95]، فناسَب النَّظم تعقيب كلِّ آية بما يُناسب مرتَكب مَن قدّم، ولَم يكن عكس الوارد ليناسِب[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الاستهزاء والسُّخرية:

الاستهزاء استفعال في الطَّلب، فكأنَّ فاعلَه يَطلُب الهُزْء، فهو مَن يتعمَّد ذلك، قال الرّاغب: الاستهزاء ارتياد الهُزْء، وإن كان قد يُعبَّر به عن تعاطي الهُزْء، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، إضافة إلى معنى المُبالَغة[1] في الفعل فكأنَّ هؤلاء يبالِغون مُبالغة لا يتزحزحون هُنا عنها، ثُمَّ إنَّ الاستهزاء أخفُّ من السّخرية كما قال ابن عاشور[2]، فصار الاستهزاء أمرًا يسيرًا لا صعوبة فيه، وقد أشار الزَّركشيُّ إلى الفرْق بين السُّخرية والاستهزاء، فقال: "الاستهزاء هو إسماع الإساءة، والسُّخرية قد تكون في النَّفس، ولهذا يقولون: سخِرْتُ منه، كما يقولون: عجِبْتُ منه"[3].

الاستهزاء مُبالَغة في السُّخرية

وممّا يُذكر في الفرْق بينهما أنَّ بعض عُلماء اللُّغة فرَّقوا بينهما من ناحية التَّركيب؛ فيُقال: (سخر منه، وهزئ به)؛ فاقترن فعل السُّخرية بحرْف الجرِّ (من)، واقترن فعل (الاستهزاء) بحرْف (الباء)، وآيات القرآن تؤكِّد ذلك فغالب استعمال القرآن للفعل (سخر) جاء مُتعدّيا بحرْف (مِن) الدّالِّ على الاعتداء، وفعل الاستهزاء تعدّى بحرْف الباء الّذي يَدُلُّ على الإلصاق.

وممّا يُذكر في الفرْق أيضًا أنَّ السُّخرية توصَف بالشِّدّة ووجود سبب يَدعو إليها بينما الاستهزاء لا يقتضي وجود سبب يدعو إليه، وإنَّما هو إلصاقُ للعَيب والذَّمِّ بمَن لا يستحقُّه حَسَدًا أو حِقْدًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/381.
(4) محمّد داوود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 284.

الإملاء والإمهال:

الإملاء أشدُّ كثيرًا من الإمهال، لأنَّه يَتضاعف به العذاب[1]، ويُصاحِبه استدراج لزيادة الإثم والخطأ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنَّه قد نجا؛ فيُؤخَذ بالعقوبة[2].

الإملاء أشَدُّ من الإمهال

العِقاب والعذاب:

مُسمَّى العقاب إنَّما يُراد به في الغالب أَخْذٌ بعذاب مُناسب لحال المُجرم إثْر معصيته وعَقيب جريمته[3] مع اختصاص لفظة ﴿عِقَابِ﴾ بالعذاب في القرآن كما أشار الرّاغب[4]، فالعذاب داخل في مفهوم العقاب، مع دلالة العقاب على التَّهديد والوعيد لِكُلِّ مَن يفعل ذلك؛ لأنَّ الاعْتقابَ معناه أن يَتعاقب شيْء بعد آخَر كاعتقاب اللَّيل والنَّهار[5].

العذاب داخل في مفهوم العقاب، والعقاب فيه دلالة على التَّهديد والوَعيد

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.
(4) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (عقب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»